أظلم الناس في القرآن الكريم

د٠ محمد بن رزيق الرحيلي(*)

مقدمة :

الحمد لله ولي الصالحين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين وعلى أله وصحبه أجمعين.

أما بعد،

فهذا بحث عنوانه: ((**أظلم الناس في القرآن الكريم**))

مشكلة البحث:

إن الظلم من أعظم ما يُرتكب على وجه الأرض شناعة، وكلما ابتعد المرء عن شرع الله زاد ظلمه، ولقد انتشر الظلم في هذا الزمن أكثر من ذي قبل، حيث تُشَرَّع له القوانين، لذا كان الحديث عن أظلم الناس في القرآن الكريم.

أهمية البحث:

لقد أسهب القرآن الكريم في الحديث عن الظلم والظالمين، حيث تكرر لفظ الظلم بصيغه المختلفة في مائتين وخمس وستين آية وفي ثمان وخمسين سورة؛ أي فيما يتجاوز نصف سور القرآن.

وورد لفظ الظلم بصيغة وزن أفعل (أظلم) ما يقارب ستة عشرة مرة، فكان واجباً على المؤمن أن يعرف هذه الأصناف ويبتعد عنها كل البعد.

حدود البحث:

ذكر أصناف الظالمين وعقوباتهم الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم بلفظ (أظلم).

(*) أستاذ مشارك بقسم الدراسات القرآنية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – ينبع – جامعة طيبة.

أهداف البحث:

١-الحرص على الارتباط بكتاب الله عز وجل لعظم أجر تلاوته وتدبره وتفهم معانيه ففيه أعظم الأجر .

٢-بيان أشد الناس ظلماً والعقوبة المترتبة على ذلك الظلم.

٣-الابتعاد عن ممارسة الظلم بشتى أنواعه.

٤-المساهمة في معالجة مشكلة الظلم.

٥-المساهمة في نشر ثقافة التفسير الموضوعي ومعالجته لقضايا لمجتمع.

منهج البحث:

اعتمد الباحث على المنهج الوصفي والمنهج الاستقرائي الاستنباطي الذي يقوم على استقراء الآيات المتعلقة بالموضوع وتفسيرها تفسيراً موضوعياً من خلال كلام العلماء واستنباط المعاني المناسبة منها.

الدراسات السابقة:

حسب علمي القاصر أنه لا توجد دراسة بهذا العنوان، وهناك بحوث قريبة من الموضوع وهي:

١-الظلم في ضوء القرآن الكريم حقيقته أنواعه أسبابه آثاره الوقاية منه، للباحثة نورة بنت حسن، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه لقسم العلوم في التفسير كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية جامعة باتنة الجزائر.

٢-إنكار الظلم في ضوء الكتاب والسنة، للباحث محمد إبراهيم أحمد سيف، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في أصول الدين بكلية الدراسات العليا جامعة النجاح الوطنية نابلس فلسطين.

خطة البحث:

اشتمل البحث على: مقدمة وفيها: موضوع البحث، مشكلته، وحدوده، وأهدافه، ومنهجه، وخطة البحث.

وتمهيد وستة مباحث وخاتمة.

تمهيد: الظلم في القرآن الكريم.

المبحث الأول: الشرك بالله تعالى.

المبحث الثاني: افتراء الكذب على الله وادعاء النبوة.

المبحث الثالث: تحليل الحرام وتحريم الحلال.

المبحث الرابع: الإعراض عن الدعوة.

المبحث الخامس: منع الدعوة والتصدي لمحاربتها.

المبحث السادس: كتم شهادة الحق.

تمهيد :

الظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه، ومجاوزة الحد.(١)

وقال الراغب: الظلم هو الانحراف عن العدل ولذلك حد بأنه وضع الشيء في غير موضعه المخصوص به، وقد يسمى هذا الانحراف جوراً وعدواناً وطغياناً، والظلم أعم هذه الألفاظ استعمالاً.(٢)

ولما كان الظلم ترك الحق الجاري مجرى النقطة من الدائرة صار العدول عنه إما قريبًا وإما بعيدًا، فمن كان عنه أبعد كان رجوعه إليه أصعب " ولذلك قال تعالى: {وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا } [سورة النساء:٦٠] تنبيهًا إلى أن الشيطان متى أمعن بهم في البعد من الحق صعب عليهم حينئذٍ الاهتداء.(٣)

ولقد أسهب القرآن الكريم في الحديث عن الظلم والظالمين تارة بالحديث مباشرة عن الظلم، وتارة بذكر قصص الظالمين، وتارة بالموعظة وغير ذلك حيث تكرر لفظ الظلم بصيغه المختلفة في مائتين وخمس وستين آية وفي ثمان وخمسين سورة؛ أي فيما يتجاوز نصف سور القرآن.

وورد التشنيع من فعل الظالمين بصيغة أفعل (أظلم) ما يقارب ستة عشرة مرة، عمدت إلى هذه المواضع وحاولت تفسيرها تفسيراً موضوعياً من كلام المفسرين والعلماء ورتبتها في البحث حسب الموضوع لا حسب ترتيب ورود هذه الآيات في القرآن الكريم.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٤٦٨/٣)، الصحاح للجوهري (١٩٧٧/٥)، المصباح المنير للفيومي (١٤٦).

(٢) انظر: المفردات للراغب ص(٣٠٥).

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ص(٢٥٣).

المبحث الأول

الشرك بالله

لا شك أن الشرك بالله تعالى هو أعظم الظلم، حيث يجعل المرء لله نداً وهو خلقه.

وفي الحديث (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ . قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ . قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ)[1].

وقال تعالى: { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } [سورة الأنعام:٨٢] الظلم المراد به في الآية الشرك ويدل على ذلك ما جاء في صحيح الإمام البخاري (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ } شَقَّ ذَلِكَ عَلَى المُسْلِمِينَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَا لاَ يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ: (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾) [سورة لقمان:١٣])[2]

"وقد هدت لقمان الحكمة العميقة التي أكرمه اللَّه وخصه بها، إلى أن أفحش الظلم أن يجود الإنسان على أحد بحق غيره، فمن أعطى حق اللَّه لأحد خلقه فقد

---

(١) صحيح البخاري (١٨/٦) كتاب باب قول الله تعالى: (فلا تجعلوا لله ندا)، رقم الحديث (٤٤٧٧) ، صحيح مسلم(٩٠/١) كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، رقم الحديث (١٤١).

(٢) صحيح البخاري (١٦٣/٤) كتاب باب قول الله تعالى: (ولقد آتينا لقمان)، رقم الحديث (٣٤٢٩)

عمد إلى حق أكبر كبير، فأعطاه أذل ذليل، وكان كرجل وضع تاج الملك على مفرق إسكاف، وأي جور أكبر من هذا الجور وأي ظلم أفحش من هذا الظلم؟ .

وليعلم يقينا أن كل مخلوق كبيرا كان أو صغيرا هو أذل من إسكاف، أمام عظمة اللَّه وجلالته، وقد دلت الآية، وشهد به الشرع والعقل السليم، أن الشرك أقبح العيوب، وما زال الناس يعتبرون إساءة الأدب مع كبرائهم وسادتهم أكبر عيب وأعظم خرق، فلما كان تبارك وتعالى أكبر من كل كبير، كانت إساءة الأدب إليه، والإشراك معه عيبا ليس فوقه عيب، وخرقا لا يفوقه خرق، وقد اتفقت جميع الشرائع على المنع من الشرك، والأمر بالتوحيد، وهو الصراط المستقيم، وطريق النجاة، وكل ما عداها من طرق وسبل، فهي طرق الضلال، والسبل المردية."[1] قال اللَّه تعالى:{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } [سورة الأنبياء:٢٥].

قال تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾) [سورة الأنعام:٢١]، "ومن أظلم، أكفر، ممن افترى، اختلق، على الله كذبا، فأشرك به غيره، أو كذب بآياته، يعني: القرآن، إنه لا يفلح الظالمون، الكافرون".[2]

"قال الحسن: كل ما في القرآن بآياتنا وآياته يعني به الدين بما فيه لا يفلح الظالمون الكافرون".[3]

قال ابن الجوزي: " والمراد بالظلم المذكور في هذه الآية: الشّرك".[4]

---

(١) رسالة التوحيد المسمى بـ تقوية الإيمان لإسماعيل الدهلوي ص(٩٠).

(٢) معالم التنزيل للبغوي (١١٧/٢).

(٣) الكشف والبيان للثعلبي (١٤١/٤).

(٤) زاد المسير لابن الجوزي (١٦/٢).

فأول ما تنطبق عليه الآية في أظلم الناس على المشركين، وكما قال المفسرون في هذه الآية قالوا في مثيلاتها.

قال تعالى: (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾) [سورة الأعراف:٣٧].

فنجد أن هذه الآية تماثل سابقتها في صدرها وتختلف في العاقبة، ففي الأنعام قال تعالى: (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾) وفي هذه قال: (أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾) ، قال السعدي في تفسير هذه الآية:" لا أحد أظلم {مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} بنسبة الشريك له، أو النقص له، أو التقول عليه ما لم يقل، {أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ} الواضحة المبينة للحق المبين، الهادية إلى الصراط المستقيم، فهؤلاء وإن تمتعوا بالدنيا، ونالهم نصيبهم مما كان مكتوبا لهم في اللوح المحفوظ، فليس ذلك بمغن عنهم شيئا، يتمتعون قليلا ثم يعذبون طويلا {حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ} أي: الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم واستيفاء آجالهم.

{قَالُوا} لهم في تلك الحالة توبيخا وعتابا {أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} من الأصنام والأوثان، فقد جاء وقت الحاجة إن كان فيها منفعة لكم أو دفع مضرة. {قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا} أي: اضمحلوا وبطلوا، وليسوا مغنين عنا من عذاب الله من شيء.

{وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} مستحقين للعذاب المهين الدائم".[1]

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٢٨٨/١).

وقال تعالى: (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) [سورة يونس:١٧- ١٨]، "فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا، فزعم أن له شريكا أو ولدا أو كذب بآياته، بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن، إنه لا يفلح المجرمون، لا ينجو المشركون.

ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم، إن عصوه وتركوا عبادته، ولا ينفعهم، إن عبدوهم، يعني: الأصنام، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل: أتنبئون الله، أتخبرون الله، بما لا يعلم الله صحته، ومعنى الآية: أتخبرون الله أن له شريكا وعنده شفيعا بغير إذنه ولا يعلم الله لنفسه شريكا، في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون"[١].

ويقص علينا ربنا قصة أصحاب الكهف وكيف تمسكوا بإيمانهم واعتزلوا الشرك وأهله ويقولون: (هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) [سورة الكهف:١٥]، " هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا، أي عبدوا. مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ، يعني: هلا يأتون بحجة بينة على عبادة آلهتهم. فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى، أي اختلق عَلَى اللَّهِ كَذِباً أن له شريكاً"[٢].

فكل من قلد في عبادته غير الله تعالى فهو من أظلم الناس، قال البقاعي:" فالآية دالة على فساد التقليد في الوحدانية."[٣]، وقال ابن عادل:" وهذا من أعظم الدلائل على فساد القول بالتَّقليد."[٤]

---

(١) معالم التنزيل للبغوي (٢/٤١٤).
(٢) بحر العلوم للسمرقندي (٢/٣٤٠).
(٣) نظم الدرر للبقاعي(١٢/٢٣).
(٤) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٢/٤٣٨).

ويقول الله تعالى في شأن قوم نوح وهم أول من أشرك مع الله غيره في هذه الأرض: (وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى) [سورة النجم:٥٢]، "أي: أكبر وأشد طغيانا. وفي القصة: أن الرجل منهم كان يأتي بابنه إلى نوح فيقول: احذر هذا الشيخ، وإياك أن يضلك، فإن أبي حملني وأنا في مثل سنك إليه وحذرني منه كما حذرتك منه".(١)

والأنبياء جميعهم بعثوا ليدعوا الناس إلى عبادة الله وحده ونبذ جميع ما يعبد من دون الله تعالى، فمن أطاعهم دخل الجنة ومن عصاهم دخل النار، قال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ گ) [سورة النحل:٣٦]، أي: بعثنا إلى كل أمة تقدمت وسلفت رسولاً بأن يعبدوا الله ويخلصوا له العبادة، ويبعدوا من طاعة الطاغوت، وهو الشيطان، ويحذروه أن يغويهم ويصدهم عن سبيل الله عز وجل، فمنهم من هدى الله، ففعل ما أمر به، وذلك بتوفيق الله عز وجل له. ومنهم من حقت عليه الضلالة فضل ولم يؤمن وذلك خذلان الله سبحانه له".(٢)

والآيات التي تدعو إلى التوحيد ونبذ الشرك كثيرة جدا؛ لأن الغاية من خلق العباد هي عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [سورة الذاريات:٥٦]، "هذه الغاية، التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته، المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك يتضمن معرفة الله تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة

(١) تفسير القرآن العظيم للسمعاني (٣٠٣/٥).

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب (٣٩٨٩/٦).

لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم".[1]

والله تعالى يغفر الذنوب جميعا إلا الشرك به فإنه لا يغفره وصاحبه خالـــدا مخلدا في النار، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِـــكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا } [سورة النساء:٤٨].

* *

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٨١٣/١).

المبحث الثاني

افتراء الكذب على الله وادعاء النبوة

افتراء الكذب على الله سبيل الكافرين الذين يتبعون أهواءهم ولا يرضون ولا يصدقون بما جاء من الله عن طرق الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم.

"افتراء الكذب على الله، والتكذيب بالحق وشواهد هذه المسألة من الكتاب والسنة كثير، وهذا دأب المخالفين للدين المبين كاليهود والنصارى، يدعون أن ما هم عليه هو الحق، وأن الله أمرهم بالتمسك به، وأن الدين المبين ليس بحق، وأن الله تعالى أمرهم بتكذيبه، كل ذلك لاتباع أسلافهم، لا ينظرون إلى الدليل، وهكذا أهل البدع والضلالات يعتقدون بدعهم الحق، وأن الله أمرهم بها، وأن ما عليه أهل الحق مُفْتَرًى، لا يصدقون به".(١)

قال تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾) [سورة الأنعام:٢١]، وفي سبب نزول هذه الآية ؛ روى ابن أبي حاتم بسنده عن عكرمة قال: قال النضر وهو من بني عبد الدار: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى فأنزل الله تعالى وذكر الآية.(٢)

وقيل في عبدالله بن أبي السرح، روى ابن أبي حاتم بسنده عن خلف الأعمى قال: كان ابن أبي سرح يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم الوحي، فأتى أهل مكة فقالوا: يا ابن أبي سرح كيف كتبت لابن أبي كبشة القرآن؟ قال: كنت أكتب كيف شئت فأنزل الله تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾).(٣)

---

(١) فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية، لمحمود شكري الألوسي (١٠٨).

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (١٢٧٣/٤).

(٣) المصدر السابق (١٩٣٥/٦).

"قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن أشدُّ اعتداءً، وأخطأ فعلا وأخطأ قولا " مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا " يعني: ممن اختلق على الله قيلاً باطلاً، واختـرق من نفسه عليه كذبًا، فزعم أن له شريكًا من خلقه، وإلهًا يعبد من دونه – كمـا قاله المشركون من عبدة الأوثان – أو ادعى له ولدًا أو صـاحبةً، كمـا قالتـه النصارى " أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ "، يقول: أو كذب بحججه وأعلامـه وأدلتـه التـي أعطاها رسله على حقيقة نبوتهم، كذّبت بها اليهود " إِنَّهُ لَا يُفْلِـحُ الظَّـالِمُونَ "، يقول: إنه لا يفلح القائلون على الله الباطل، ولا يدركون البقـاءَ فـي الجنـان، والمفترون عليه الكذب، والجاحدون بنبوة أنبيائه."(١)

وقال تعالى: { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَـمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّـالِمُونَ فِـي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْـزَوْنَ عَـذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ}[سـورة الأنعام:٩٣].

ومثل ما قيل في الآية السابقة قيل في هذه الآية، قال ابن جرير: "ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا"، ومن أخطأ قولا وأجهل فعلا "ممن افترى علـى الله كذبًا"، يعني: ممن اختلق على الله كذبًا، فادعى عليه أنه بعثه نبيًّا وأرسله نذيرًا، وهو في دعواه مبطل، وفي قيله كاذب.

وهذا تسفيهٌ من الله لمشركي العرب، وتجهيلٌ منه لهم، في معارضة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، والحنفيِّ مسيلمة، لنبي الله صلى الله عليه وسلم، بدعوى أحدهما النبوّة، ودعوى الآخر أنه قد جاء بمثل ما جاء به رسول الله صـلى الله عليه وسلم، ونفْيٌ منه عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم اختلاقَ الكذب عليـه ودعوى الباطل.

---

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٩٦/١١).

ثم ذكر الأقوال في المعنى بذلك ثم قال: "وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله قال: "ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء"، ولا تمانُع بين علماء الأمة أن ابن أبي سرح كان ممن قال: "إني قد قلت مثل ما قال محمد"، وأنه ارتدّ عن إسلامه ولحق بالمشركين، فكان لا شك بذلك من قيله مفتريًا كذبًا. وكذلك لا خلاف بين الجميع أن مسيلمة والعنسيّ الكذابين، ادّعيا على الله كذبًا. أنه بعثهما نبيين، وقال كل واحد منهما: إنّ الله أوحى إليه، وهو كاذب في قيله. فإذا كان ذلك كذلك، فقد دخل في هذه الآية كل من كان مختلقًا على الله كذبًا، وقائلا في ذلك الزمان وفي غيره: "أوحى الله إلي"، وهو في قيله كاذب، لم يوح الله إليه شيئًا. فأما التنزيل، فإنه جائز أن يكون نزل بسبب بعضهم، وجائز أن يكون نزل بسبب جميعهم ، وجائز أن يكون عني به جميعُ المشركين من العرب ؛ إذ كان قائلو ذلك منهم، فلم يغيّروه. فعيّرهم الله بذلك، وتوعّدهم بالعقوبة على تركهم نكيرَ ذلك، ومع تركهم نكيرَه هم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم مكذبون، ولنبوّته جاحدون، ولآيات كتاب الله وتنزيله دافعون، فقال لهم جل ثناؤه: "ومن أظلم ممن ادّعى عليّ النبوّة كاذبًا"، وقال: "أوحي إلي"، ولم يوح إليه شيء، ومع ذلك يقول: "ما أنزل الله على بشر من شيء"، فينقض قولَه بقوله، ويكذب بالذي تحققه، وينفي ما يثبته. وذلك إذا تدبره العاقلُ الأريب علم أن فاعله من عقله عديم"(١).

قال البقاعي: " هذا تهديد على سبيل الإجمال، كعادة القرآن الجميل، يدخل فيه كل من اتصف بشيء من ذلك، كمسيلمة والأسود العنسيّ وغيرهما"(٢)

قال ابن عجيبة: " كل مَن ادعى حالاً أو مقامًا، يعلم من نفسه أنه لم يُدركه ولم يتحقق به، فالآية تَجُرُّ ذيلَها عليه"(٣).

---

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٥٣٦/١١).
(٢) نظم الدرر للبقاعي (١٩٠/٧).
(٣) البحر المديد لابن عجيبة (١٤٦/٢).

" ولما كان الجواب قطعا في كل منصف: لا أحد أظلم منه، بل هم أظلم الظالمين، كان كأنه قيل: فلو رأيتهم وقد حاق بهم جزاء هذا الظلم كرد وجوههم مسودة وهم يسحبون في السلاسل على وجوههم، وجهنم تكاد تتميز عليهم غيظاً، وهم قد هدّهم الندم والحسرة، وقطع بهم الأسف والحيرة لرأيت أمراً يهول منظره، فكيف يكون مذاقه ومخبره! فعطف عليه ما هو أقرب منه، فقال كالمفصل لإجمال ذلك التهديد مبرزاً بدل ضميرهم الوصف الذي أداهم إلى ذلك: {ولو ترى} أي يكون منك رؤية فيما هو دون ذلك {إذ الظالمون} أي لأجل مطلق الظلم فكيف بما ذكر منه! واللام للجنس الداخل فيه هؤلاء دخولاً أولياً {في غمرات الموت} أي شدائده التي قد غمرتهم كما يغمر البحر الخضم من يغرق فيه، فهو يرفعه ويخفضه ويبتلعه ويلفظه، لا بد له منه {والملائكة} أي الذين طلبوا جهلاً منهم إنزال بعضهم على وجه الظهور لهم، وأخبرناهم أنهم لا ينزلون إلا لفصل الأمور وإنجاز المقدور {باسطوا أيديهم} أي إليهم بالمكروه لنزع أرواحهم وسلّها وافية من أشباحهم كما يسل السفود المشعب من الحديد من الصوف المشتبك المبلول، لا يعسر عليهم تمييزها من الجسد، ولا يخفى عليهم شيء منها في شيء منه، قائلين ترويعاً لهم وتصويراً للعنف والشدة في السياق والإلحاح والتشديد في الإزهاق من غير تنفيس وإمهال، وأنهم يفعلون بهم فعل الغريم المسلط الملازم {أخرجوا أنفسكم} فكأنهم قالوا: لماذا يا رسل ربنا؟ فقالوا: {اليوم} أي هذه الساعة، وكأنهم عبروا به لتصوير طول العذاب {تجزون عذاب الهون} أي العذاب الجامع بين الإيلام العظيم والهوان الشديد والخزي المديد بالنزع وسكرات الموت وما بعده في البرزخ – إلى ما لا نهاية له {بما كنتم تقولون} أي تجددون القول دائماً {على الله} أي الذي له جميع العظمة {غير الحق} أي غير القول المتمكن غاية التمكن في درجات الثبات، ولو قال بدله: باطلاً، لم يؤد هذا المعنى، ولو قال: الباطل، لقصر عن المعنى أكثر، ..

{وكنتم} أي وبما كنتم {عن آياته تستكبرون} أي تطلبون الكبر للمجاوزة عنها، ومن استكبر عن آية واحدة كان مستكبراً عن الكل، أي لو رأيت ذلك لرأيت أمراً فظيعاً وحالاً هائلاً شنيعاً، وعبر بالمضارع تصويراً لحالهم."(١)

فانظر إلى شدة عذاب الظالمين فكيف بمن وصفه الله تعالى بأنه أظلم من غيره.

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ} [سورة العنكبوت:٦٨]، قال ابن عاشور:" لما أوفاهم ما يستأهلونه من تشنيع أحوالهم وسوء انتظام شؤونهم جاء في عقبه بتذييل يجمعها في أنها افتراء على الله وتكذيب بالحق، ثم جزاهم الجزاء الأوفى اللائق بحالهم وهو أن النار مثواهم.

وافتتح تشخيص حالهم بالاستفهام عن وجود فريق هم أظلم من هؤلاء الذين افتروا على الله وكذبوا بالحق توجيها لأذهان السامعين نحو البحث هل يجدون أظلم منهم حتى إذا أجادوا التأمل واستقروا مظان الظلمة واستعرضوا أصنافهم تيقنوا أن ليس ثمة ظلم أشد من ظلم هؤلاء."(٢) فلا كذب أظلم ممن كذب على الله أو كذب رسوله ﷺ وكذب الكتاب الذي أنزل عليه.

وقال الشوكاني: " (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أي: لا أحد أظلم منه، وهو من زعم أن لله شريكا (أو كذب بالحق لما جاءه) أي: كذب بالرسول الذي أرسل إليه، والكتاب الذي أنزله على رسوله. وقال السدي: كذب بالتوحيد، والظاهر شموله لما يصدق عليه أنه حق. ثم هدد المكذبين وتوعدهم فقال:

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (١٩١/٧-١٩٢).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٤/٢١).

(أليس في جهنم مثوى للكافرين) أي: مكان يستقرون فيه، والاستفهام للتقريـــر، والمعنى: أليس يستحقون الاستقرار فيها وقد فعلوا ما فعلوا؟"[1]

ومثل آية سورة العنكبوت أتت أيضاً الآية التي في سورة الزمر، فقال تعالى: { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْـــوًى لِلْكَافِرِينَ} [سورة الزمر:٣٢]، {فمن أظلم ممن كذب على الله} وزعم أنَّ له ولداً وشريكاً {وكذَّب بالصدق} بالقرآن {إذ جاءه} على لسان الرَّسول {أليس في جهنَّم مثوى} مقامٌ ومنزلٌ لهؤلاء[2].

* *

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/٢٤٥).

(٢) الوجيز للواحدي ص(٩٣٣).

المبحث الثالث

تحليل الحرام وتحريم الحلال

تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله من كبائر الذنوب وقرنه الله بالشرك، قال تعالى: { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [سورة الأعراف:٣٣]، فمن أعظم الكذب والافتراء على الله تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، قال تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾} [سورة التوبة:٣١] .

فاتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً بتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ: يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الوَثَنَ، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ}، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ.(١)

قال تعالى: { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [سورة الأنعام:١٤٤]، (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا)، يقول: فمن أشد ظلمًا لنفسه، وأبعد عن الحق ممن تخرَّص على الله قيلَ الكذب، وأضاف إليه تحريم ما لم يحرّم، وتحليل ما لم يحلل (ليضل الناس بغير علم) ، يقول: ليصدّهم عن سبيله (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) ، يقول:

(١) سنن الترمذي (٢٧٨/٥) كتاب التفسير، باب ومن سورة التوبة، رقم الحديث (٣٠٩٥).

لا يوفّق الله للرشد من افترى على الله وقال عليه الزُّور والكذب، وأضاف إليه تحريم ما لم يحرّم، كفرًا بالله، وجحودًا لنبوة نبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم.(١)

وقيل المراد بهذه الآية عمرو بن لحي الذي أدخل عبادة الأصنام على العرب، قال ابن كثير: "وَأَوَّلُ مَنْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: عَمْرُو بْنُ لُحَيّ بْنِ قَمَعَة، فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَوَّلُ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ، وَوَصَلَ الْوَصِيلَةَ، وَحَمَى الْحَامِيَ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ(٢)"(٣) .

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن التحليل والتحريم يكون بالوحي فقال: {قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [سورة الأنعام:١٤٥].

وقال تعالى: { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ } [سورة الزمر:٣٢]، قال ابن عطية: " والإشارة بهذا الكذب بقولهم: إن لله صاحبة وولدا وقولهم: إن كذا حرام، وإن كذا حلال افتراء على الله، وكذبوا أيضا بالصدق، وذلك تكذيبهم أقوال محمد عليه السلام عن الله تعالى ما كان من ذلك معجزا أو غير معجز."(٤)

---

(١) جامع البيان لابن جرير (١٨٩/١٢).

(٢) قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ)) صحيح البخاري (٥٤/٦) كتاب التفسير، باب ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة، رقم الحديث (٤٦٢٣)، صحيح مسلم (٢١٩٢/٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبارون، رقم الحديث (٢٨٥٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٥٢/٣).

(٤) المحرر الوجيز لابن عطية (٥٣١/٤).

وقال تعالى: { وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَـذَا حَـرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾} [سورة النحل:١١٦] "أي: لا تحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم، كذبا وافتراء على الله وتقولا عليه {لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ} لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا بد أن يظهر الله خزيهم وإن تمتعوا في الدنيا فإنه {مَتَاعٌ قَلِيلٌ} ومصيرهم إلى النار {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}"(١).

"والآية تحذر المسلمين من أن يتقولوا على الله ما لم يقله بنص صريح أو بإيجاد معان وأوصاف للأفعال قد جعل لأمثالها أحكاما، فمن أثبت حلالا وحراما بدليل من معان ترجع إلى مماثلة أفعال تشتمل على تلك المعاني فقد قال بما نصب الله عليه دليلا."(٢)

* *

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص(٤٥١).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣١٢/١٤).

المبحث الرابع

الإعراض عن الدعوة

قال تعالى: { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾} [سورة الأنعام:١٥٧].

"قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ هَذَا الْفِعْلَ أَعْنِي «صَدَفَ» فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَازِمٌ، وَمَعْنَاهُ أَعْرَضَ عَنْهَا، وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: «صَدَفَ» فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُتَعَدِّيَةٌ لِلْمَفْعُولِ، وَالْمَفْعُولُ مَحْذُوفٌ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ صَدَّ غَيْرَهُ عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللَّهِ، وَالْقُرْآنُ يَدُلُّ لِقَوْلِ السُّدِّيِّ ؛ لِأَنَّ إِعْرَاضَ هَذَا الَّذِي لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْهُ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ، صَرَّحَ بِهِ فِي قَوْلِهِ: (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ) ، إِذَا لَا إِعْرَاضَ أَعْظَمُ مِنَ التَّكْذِيبِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: وَصَدَفَ عَنْهَا، أَنَّهُ صَدَّ غَيْرَهُ عَنْهَا، فَصَارَ جَامِعًا بَيْنَ الضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ.

وَعَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ فَمَعْنَى «صَدَفَ» مُسْتَغْنًى عَنْهُ بِقَوْلِهِ «كَذَّبَ» وَنَظِيرُ الْآيَةِ عَلَى الْقَوْلِ الَّذِي يَشْهَدُ لَهُ الْقُرْآنُ، وَهُوَ قَوْلُ السُّدِّيِّ."[1] وعلى ترجيح الشنقيطي بأن صدف هنا متعدية وأنه يشهد لها القرآن، فإن القرآن كذلك يشهد لمن قال بلزومها أو نقول: إن القرآن كما وصف الذين يصدون عن آيات الله بأنهم أظلم الظالمين كذلك وصف الذين يعرضون عن آيات الله بأنهم أظلم الظالمين، قال تعالى:{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾} [سورة الكهف:٥٧]، فأعرض عنها هو لا غيره "فَأَعْرَضَ عَنْهَا فلم يتذكر حين ذكر ولم يتدبر وَنَسِيَ عاقبة ما قَدَّمَتْ يَداهُ من الكفر

(١) أضواء البيان للشنقيطي (٥٤٨/١).

والمعاصي، غير مفكر فيها ولا ناظر في أنّ المسيء والمحسن لا بد لهما من جزاء"[1]، وأيضاً قال تعالى:{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ } [سورة السجدة:٢٢]، "أَيْ: لَا أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَّرَه اللَّهُ بِآيَاتِه وَبَيَّنَهَا لَهُ وَوَضَّحَهَا، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَرَكَهَا وَجَحَدَهَا وَأَعْرَضَ عَنْهَا وَتَنَاسَاهَا، كَأَنَّهُ لَا يَعْرِفُهَا.

قَالَ قَتَادَةُ، رَحِمَهُ اللَّهُ: إِيَّاكُمْ وَالْإِعْرَاضَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِهِ فَقَدِ اغْتَرَّ أَكْبَرَ الغرَّة، وَأَعْوَزَ أَشَدَّ العَوَز ، وَعَظَّمَ مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ: {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ} أَيْ: سَأَنْتَقِمُ مِمَّنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَشَدَّ الِانْتِقَامِ."[2]

فالعبد إذا قامت عليه الحجة بإنزال الكتب وإرسال الرسل ثم أعرض عن هذه الدعوة فهو من أظلم الناس واستحق أشد العذاب.

* *

(١) الكشاف للزمخشري (٢/٧٣٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/٣٧٠).

المبحث الخامس

منع الدعوة والتصدي لمحاربتها

إذا كان الإعراض عن الدعوة جرم عظيم فلا شك أن منع الدعوة والتصدي لمحاربتها أشد جرماً، قال تعالى: { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [سورة الصف:٧-٨]، لا أحد أظلم ممن يُدعى إلى الحق إلى الإسلام إلى إجابة دعوة الرسل وهو يُعرض ويفتري على الله الكذب "، ولما أخبر عن ردهم للرسالة، علله بقوله: {يريدون} أي يوقعون إرادة ردهم للرسالة بافترائهم {ليطفئوا} أي لأجل أن يطفئوا {نور الله} أي الملك الذي لا شيء يكافيه {بأفواههم} أي بما يقولون من الكذب لا منشأ له غير الأفواه لأنه لا اعتقاد له في القلوب لكونه لا يتخيله عاقل، فهم في ذلك كالنافخين في الشمس إرادة أن يمحو نفخهم عينها وينقص شينهم زينها، فمثل إرادتهم لإخفاء القرآن بتكذيبهم وجميع كيدهم بمن يريد إطفاء الشمس بنفخه فهو في أجهد وأضل الضلال"[1]، وبصدهم عن الحق لا يضرون إلا أنفسهم ولا يضرون الله شيئاً؛ لأن الله متم نوره ولو كره الكافرون.

ومن الآيات الدالة على عظم شناعة الصد عن سبيل الله قوله سبحانه: { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾} [سورة البقرة:١١٤]، واختلف في هذه الآية: هل المراد بها النصارى أو كفار قريش؟ وأياً كان الراجح فكل من عمل عملهم في الصد عن بيوت الله والدعوة إليه فهو من أظلم الناس، قال البيضاوي: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ عام

(١) نظم الدرر للبقاعي (٢٠/٢٩)

لكل من خرب مسجداً، أو سعى في تعطيل مكان مرشح للصلاة. وإن نزل في الروم لما غزوا بيت المقدس وخربوه وقتلوا أهله. أو في المشركين لما منعوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية."[1]

وقال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾} [سورة هود:١٨-١٩]، "(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) صِفَةٌ لِلظَّالِمِينَ الْمَلْعُونِينَ، أَيْ هُمُ الَّذِينَ يَمْنَعُونَ النَّاسَ وَيَصْرِفُونَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ الْمُوصِلَةِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَهِيَ دِينُهُ الْقَيِّمُ وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) أَيْ يَصِفُونَهَا بِالْعِوَجِ وَاللِّتْوَاءِ لِلتَّنْفِيرِ عَنْهَا، أَوْ يُرِيدُونَ أَنْ تَكُونَ عَوْجَاءَ بِمُوَافَقَتِهَا لِأَهْوَائِهِمْ مِنَ الشِّرْكِ وَإِبَاحَةِ الظُّلْمِ وَالْفِسْقِ (وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) أَيْ وَالْحَالُ أَنَّهُمْ كَافِرُونَ بِالْآخِرَةِ لَا يُؤْمِنُونَ بِبَعْثٍ وَلَا جَزَاءٍ، وَإِنَّمَا الدِّينُ عِنْدَهُمْ رَابِطَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ، وَشَعَائِرُ قَوْمِيَّةٌ، قَدْ يَتَعَصَّبُونَ لَهَا تَعَصُّبَهُمْ لِقَوْمِيَّتِهِمْ، وَتَقْلِيدًا لِآبَائِهِمْ، وَهَكَذَا شَأْنُ الْمَلَاحِدَةِ وَالْمُبْتَدِعَةِ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ، الْمُدَّعِينَ لِدِينِ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَا تَرَاهُمْ فِي هَذَا الزَّمَانِ."[2]

* *

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١٠١/١).

(٢) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٤٨/١٢).

المبحث السادس

كتم شهادة الحق

من أعظم الظلم كتم شهادة الحق، يقول الله تعالى:{ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [سورة البقرة:٢٨٣]، " نَهَى الشَّاهِدَ عَنْ أَنْ يَضُرَّ بِكِتْمَانِ الشَّهَادَةِ، وَهُوَ نَهْيٌ عَلَى الْوُجُوبِ بِعِدَّةِ قَرَائِنَ مِنْهَا الْوَعِيدُ. وَمَوْضِعُ النَّهْيِ هُوَ حَيْثُ يَخَافُ الشَّاهِدُ ضَيَاعَ حَقٍّ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاس: عَلَى الشَّاهِد أَنْ يَشْهَدَ حَيْثُمَا اسْتُشْهِدَ، وَيُخْبِرَ حَيْثُمَا اسْتُخْبِرَ، قَالَ: وَلَا تَقُلْ أُخْبِرُ بِهَا عِنْدَ الْأَمِيرِ، بَلْ أَخْبِرْهُ بِهَا لَعَلَّهُ يَرْجِعُ وَيَرْعَوِي."[١]

"قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذا عندي بحسب قرينة حال الشاهد والمشهود فيه والنازلة، لا سيما مع فساد الزمن وأرذال الناس ونفاق الحيلة وأعراض الدنيا عند الحكام، فرب شهادة إن صرح بها في غير موضع النفوذ كانت سببا لتخدم باطلا ينطمس به الحق."[٢] " قيل: مَا أوعد الله تَعَالَى على شَيْء كإيعاده على كتمان الشَّهَادَة، فَإِنَّهُ قَالَ: {فَإِنَّهُ آثم قلبه} وَأَرَادَ بِهِ مسخ الْقلب"[٣].

وخص القلب بالذكر لأنه ملك الأعضاء وكتمانها يتعلق به، قال الزمخشري: "فإن قلت: هلا اقتصر على قوله: (فَإِنَّهُ آثِمٌ) ؟ وما فائدة ذكر القلب- والجملة هي الآثمة لا القلب وحده-؟ قلت: كتمان الشهادة: هو أن يضمرها ولا يتكلم بها، فلما كان إثما مقترفا بالقلب أسند إليه، لأنّ إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ. ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد: هذا مما أبصرته عيني، ومما سمعته أذني، ومما عرفه قلبي، ولأنّ القلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤١٥/٣).

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٣٨٨/١).

(٣) تفسير القرآن العظيم للسمعاني(٢٨٧/١).

إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله، فكأنه قيل: فقد تمكن الإثم في أصل نفسه، وملك أشرف مكان فيه. ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط، وليعلم أنّ القلب أصل متعلقه ومعدن اقترافه، واللسان ترجمان عنه. ولأنّ أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح وهي لها كالأصول التي تتشعب منها. ألا ترى أنّ أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر، وهما من أفعال القلوب، فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بأنه من معاظم الذنوب"(١).

وختم الله الآية بقوله : { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾} وهذا "توعُّدٌ، وإِنْ كَانَ لفظُها يعمُّ الوعيدَ والوَعْدَ"(٢).

ومن الآيات الدالة على عظم كتم الشهادة وشدة هذا الظلم قوله تعالى: { أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾} [سورة البقرة:١٤٠]، في هذه الآية رد على اليهود والنصارى الذين ادعوا أن إبراهيم وبنيه من الأنبياء عليهم السلام كانوا هوداً أو نصارى، واليهودية والنصرانية إنما جاءت بعد إبراهيم عليه السلام، " وقد أخبر أن إبراهيم وبنيه لم يكونوا على اليهودية والنصرانية ولكن كانوا مسلمين حنفاء، (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ) يعني أخفى شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وهي علمهم بأن إبراهيم وبنيه كانوا مسلمين وأن محمدا أحق بنعته وصفته وجدوا ذلك في كتبهم وكتموه وجحدوه"(٣).

فمن كتم شهادة الحق فقد وافق اليهود والنصارى في ذلك نسأل الله العافية.

---

(١) الكشاف للزمخشري (١/٣٣٠).

(٢) الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي (١/٥٥٤).

(٣) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن (١/٨٦).

الخاتمـــة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى أله وصحبه أجمعين.

أما بعد،

فأحمد المولى سبحانه وتعالى على ما أنعم علي من إتمام هذا البحث المعنون بـــ (أظلم الناس في القرآن الكريم)، وخلصت فيه إلى بعض النتـــائج ومـــن أهمها:

١-(إن) أعظم الظلم الوارد في القرآن الكريم هو ما جاء التشنيع عليـــه بلفـــظ أظلم.

٢-إن أعظم الظلم هو الشرك بالله تعالى؛ لذا نجد كل الآيات التي جاءت بلفـــظ أظلم يدخل فيه الشرك دخولاً أولياً.

٣-إن الكذب مرتبط بالشرك، فنجد أغلب الآيات التي جاءت بلفظ (أظلم) جـــاء فيها ممن أفترى على الله كذباً.

٤- إن ادعاء النبوة وتحليل الحرام وتحريم الحلال والإعراض عـــن الـــدعوة والتصدي لمحاربتها وكتم شهادة الحق من أعظم الظلم الوارد في كتاب الله تعالى.

المراجع

١-أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، دار عالم الفوائد ، مكة المكرمة، ط. الأولى، ١٤٢٦هـ.

٢-أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للقاضي أبي سعيد عبدالله بن عمر البيضاوي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٣-البحر المديد، أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة ، ط. دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى، ١٤٢٣هـ.

٤-التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد ، ط:١، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

٥-الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، محمد بن أحمد ، ت: د. عبد الله التركي، ط:١، بيروت، مؤسسة الرسالة ، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٦-الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي، أبو زيد عبدالرحمن بن محمد ، ت: محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، ط:١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ.

٧-الذريعة إلى مكارم الشريعة، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، تحقيق: د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار النشر: دار السلام – القاهرة، ١٤٢٨ ه- ٢٠٠٧ م.

٨-الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

٩-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر ، ت: عادل أحمد عبدالموجود – علي محمد معوض، ط:١، الرياض، مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ.

١٠-الكشف والبيان ، الثعلبي، أحمد بن محمد ، ت: الإمام أبي محمد بن عاشور مراجعة نظير الساعدي، ط:١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.
١١-اللباب في علوم الكتاب، لأبي حفص عمر بن علي الحنبلي، ت.عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض، ط. دار الكتب العلمية -بيروت- لبنان، الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
١٢-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، أبو محمد عبدالحق بن غالب، ت: عبدالسلام عبدالشافي محمد، ط:١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ.
١٣-المصباح المنير، لأحمد بن محمد الفيومي المقري، ط. مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧م.
١٤-المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، ت: محمد سيد كيلاني، ط:١، بيروت، دار المعرفة.
١٥-الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب القيسي، مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
١٦-الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، ت. صفوان عدنان داوودي، ط. دار القلم، الدار الشامية- دمشق، بيروت، الأولى، ١٤١٥هـ.
١٧-بحر العلوم، السمرقندي، نصر بن محمد ، ت: محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، ط:١.

١٨-تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ، ت: سامي محمد السلامة، ط:٢، دار طيبة، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

١٩-تفسير القرآن العظيم ، للحافظ عبدالرحمن ابن أبي حاتم الرازي ت. أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الأولى، ١٤١٧هـ.

٢٠-تفسير القرآن، السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد ، ت: ياسر إبراهيم وغنيم بن عباس، ط:١، الرياض، دار الوطن ، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٢١-تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٢٢-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر بن سعدي ت: طه عبدالرؤف سعد، ط. مكتبة الأوس – المدينة المنورة، الأولى، د.ت.

٢٣-جامع البيان عن تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، ت: أحمد بن محمد شاكر، ط:١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٢٤-رسالة التوحيد المسمى بـ تقوية الإيمان، لإسماعيل بن عبد الغني بن ولي الله بن عبد الرحيم العُمري الدهلوي، نقلها للعربية وقدم لها: أبو الحسن علي الحسني الندوي، اعتنى بها: سيد عبد الماجد الغوري، دار وحي القلم – دمشق، سورية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣ م.

٢٥-زاد المسير في علم التفسير، لجمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي الجوزي، ط. المكتب الإسلامي -بيروت- الثالثة، ١٤٠٤هـ.

٢٦-سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، ت. أحمد بن محمد شاكر ومحمد فؤاد، ط. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الثانية، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

٢٧-صحيح البخاري، البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، ت: محمد زهير الناصر، ط:١، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.

٢٨-صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، ت: محمد فؤاد عبدالباقي، ط:١، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
٢٩-فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني، محمد بن علي، ت: د. عبدالرحمن عميرة، ط:٢، المنصورة، دار الوفاء، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
٣٠-فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية، لمحمود شكري الألوسي، تقديم وتعليق: علي بن مصطفى مخلوف، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ
٣١-لباب التأويل في معاني التنزيل المسمى بتفسير الخازن، الخازن، علاء الدين علي بن محمد البغدادي، ت: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط:١، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
٣٢-معالم التنزيل، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، ت: محمد عبدالله النمر، ود.عثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، ط. دار طيبة، الرياض، ط.الأولى، ١٤٠٩هـ.
٣٣-معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس ، ت: د. عبدالسلام هارون، ط. دار الفكر-بيروت، ط.الأولى، ١٣٩٩هـ.).
٣٤-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، إبراهيم بن عمر، ت: عبدالرزاق غالب المهدي، ط:١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

* * *